



ثبت للشام وأهله مناقب: بالكتاب والسنّة وآثار العلماء. وهي أحد ما اعتمدته في تحضيري المسلمين على غزو التتار وأمرى لهم: بلزم دمشق، ونهي لهم عن الغزو إلى مصر، واستدعائي العسكري المصري إلى الشام، وتثبيت الشامي فيه.

وقد جرت في ذلك فصول متعددة. وهذه المناقب أمور:

أحدها: البركة فيه. ثبت ذلك بخمس آيات من كتاب الله - تعالى - قوله - تعالى - في قصة موسى: {قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم} - إلى قوله - {فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجلهم بالغوه إذا هم ينكثون} * فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض وغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة رب الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا}. ومعلوم أن بني إسرائيل إنما أورثوا مشارق أرض الشام وغاربها بعد أن أغرق فرعون في اليم. قوله - تعالى - : {سبحان الذي أسرى بعده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله}، وحوله أرض الشام. قوله - تعالى - في قصة إبراهيم: {وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرین} * ونجيناهم ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين، ومعلوم أن إبراهيم إنما نجاه الله ولوطاً إلى أرض الشام من أرض الجزيرة والفرات. قوله - تعالى - : {ولسلامان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها}، وإنما كانت تجري إلى أرض الشام التي فيها مملكة سليمان. قوله - تعالى - في قصة سبا: {جعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير}، وهم كانوا بين اليمين مساكن سباً وبين منتهى الشام من العمارة القديمة كما قد ذكره العلماء. فهذه خمس نصوص حيث ذكر الله أرض الشام في هجرة إبراهيم إليها ومسرى الرسول إليها وانتقال بني إسرائيل إليها ومملكة سليمان بها ومسير سباً إليها: وصفها بأنها الأرض التي باركنا فيها. وأيضاً فيها الطور الذي كلام الله عليه موسى. والذي أقسم الله به في "سورة الطور" وفي {والتيين والزيتون} * وطور سينين)، وفيها المسجد الأقصى، وفيها مبعث أنبياء بني إسرائيل، وإليها هجرة إبراهيم، وإليها مسرى نبينا ومنها معراجه وبها ملكه وعمود دينه وكتابه وطائفة منصورة من أمته؛ وإليها المحشر والمعاد كما أن من مكة المبدأ. فمكة أم القرى من تحتها دحيت الأرض والشام إليها يحشر الناس كما في قوله: {لأول الحشر}، نبه على الحشر الثاني؛ فمكة مبدأ وإليها معاد في الخلق، وكذلك في الأمر فإنه أسرى بالرسول من مكة إلى إيليا. وبمبعثه ومخرج دينه من مكة وكمال دينه وظهوره وتمامه حتى مملكة المهدى بالشام، فمكة هي الأول والشام هي الآخر: في الخلق والأمر في الكلمات الكونية والدينية.

ومن ذلك أن بها طائفة منصورة إلى قيام الساعة وهي التي ثبت فيها الحديث في الصحاح من حديث معاوية وغيره: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة))، وفيهما عن معاذ بن جبل قال: ((وهم في الشام)). وفي تاريخ البخاري مرفوعاً قال: ((وهم بدمشق)). وفي صحيح مسلم عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ((لا يزال أهل المغرب ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة))، قال أحمد بن حنبل: "أهل المغرب هم أهل الشام" ، وهم كما قال لوجهين: أحدهما: أن في سائر الحديث بيان أنهم أهل الشام، الثاني: أن لغة النبي - صلى الله عليه وسلم - وأهل مدینته في "أهل المغرب" هم أهل الشام ومن يغرب عنهم. كما أن لغتهم في أهل المشرق هم أهل نجد والعراق، فإن التغريب والتشريق من الأمور النسبية، فكل بلد له غرب قد يكون شرقاً لغيره وله شرق قد يكون غرباً لغيره. فالاعتبار في كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - بما كان غرباً وشرقاً له حيث تكلم بهذا الحديث وهي المدينة. ومن علم حساب الأرض كطولها وعرضها علم أن حران والرقة وسيمسيات على سمت مكة، وأن الفرات وما على جانبيها بل أكثره على سمت المدينة بينهما في الطول درجتان. فما كان غربي الغرات فهو غربي المدينة، وما كان شرقها فهو شرقي المدينة. فأخبر أن أهل الغرب لا يزالون ظاهرين، وأما أهل الشرق فقد يظهرون تارة ويفلدون أخرى. وهكذا هو الواقع؛ فإن جيش الشام ما زال منصوراً وكان أهل المدينة يسمون "الأوزاعي" إمام أهل المغرب، ويسمون "الثوري" شرقاً ومن أهل المشرق.

ومن ذلك أنها خيرة الله من الأرض أو أن أهلها خيرة الله وخيار أهل الأرض، واستدل أبو داود في سنته على ذلك بحديثين: حديث عبد الله بن خوالة الأزدي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((ستجندون أجناداً: جنداً بالشام، وجنداً باليمن، وجنداً بالعراق))، فقال الخوالي: "يا رسول الله: اختر لي". قال: ((عليك بالشام؛ فإنها خيرة الله من أرضه يجتبى إليها خيرته من عباده. فمن أبي فليلحق بيمنه وليتق من غدره، فإن الله قد تكفل لي بالشام وأهله)). وكان الخوالي يقول: "ومن تكفل الله به فلا ضعية عليه". ففي هذا الحديث مناقب: أنها خيرة.

وحيث عبد الله بن عمرو عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((ستكون هجرة بعد هجرة، فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم، ويبقى في الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضوهم تقدّرهم نفس الرحمن، تحشرهم النار مع القردة والخنازير تبيت معهم حيثما باتوا وتقليل معهم حيثما قالوا)). فقد أخبر أن خير أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم؛ بخلاف من يأتي إليه أو يذهب عنه، ومهاجر إبراهيم هي الشام.

وفي هذا الحديث بشري لأصحابنا الذين هاجروا من حران وغيرها إلى مهاجر إبراهيم واتبعوا ملة إبراهيم ودين نبيهم محمد - صلى الله عليه وسلم - تسلیماً، وبيان أن هذه الهجرة التي لهم بعد هجرة أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة؛ لأن الهجرة إلى حيث يكون الرسول وآثاره وقد جعل مهاجر إبراهيم يعدل لنا مهاجر نبينا - صلى الله عليه وسلم -، فإن الهجرة إلى مهاجره انقطعت بفتح مكة.

ومن ذلك أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بها في حديث الترمذى.
ومن ذلك أن الله قد تكفل بالشام وأهله، كما في حديث الخوالي.

ومن ذلك: ((أن ملائكة الرحمن باستطعة أججتها على الشام)) كما في الصحيح من حديث عبد الله بن عمر.
ومن ذلك أن عمود الكتاب والإسلام بالشام، كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((رأيت كأن عمود الكتاب أخذ من تحت رأسي فأتبنته بصرى فذهب به إلى الشام)).

ومن ذلك أنها عقر دار المؤمنين، كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((وعقر دار المؤمنين الشام)).
ومن ذلك أن منافقها لا يغلبوا أمر مؤمنيها، كما رواه أحمد في المسند في حديث. وبهذا استدللت لقوم من قضاة القضاة وغيرهم في فتن قام فيها علينا قوم من أهل الفجور والبدع الموصوفين بخusal المنافقين لما خوفونا منهم، فأخبرتهم بهذا

ال الحديث، وأن منافقينا لا يغلبوا مؤمنينا. وقد ظهر مصداق هذه النصوص النبوية على أكمل الوجه في جهادنا للتنار، وأظهر الله لل المسلمين صدق ما وعدناهم به وبركة ما أمرناهم به، وكان ذلك فتحاً عظيماً ما رأى المسلمين مثله منذ خرجت مملكة التنار التي أذلت أهل الإسلام؛ فإنهم لم يهزموا ويفلبيوا كما غلبو على "باب دمشق" في الغزوة الكبرى، التي أنعم الله علينا فيها من النعم بما لا نحصيه؛ خصوصاً وعموماً.

والحمد لله رب العالمين، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربنا ويرضاه، وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله.

المصدر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (27/505-511)

المصادر: